القدرية والجبرية

المسؤولية

طبيعة فكرتها وكيفية تكونها في النفس

(٤)

اذا كان الاجتماع هو المكوّن الاول لفكرة المسؤولية وكانت جرثومتها لا يقوم بناؤها الاّ كما توجههُ وحدات الاجتماع الانسانية فهل هذه الجرثومة هي في بعضها في كل النفوس، فاذا انت وضعت شخصين في وسط اجتماعي واحد وعرضت عليهما صوراً واحدة كانت لكلٍّ فكرة المسؤولية وكيفها وانجاهها واحداً . وبكلمة اخرى هل فكرة المسؤولية امر اجتماعي بحت يتأثر به الفرد من غير ان يكون لتكوينهِ هو الخاص اثر فيهِ . لقد سبق لنا فيما كتبنا عن الاختيار والاضطرار ان اظهرنا ان هناك عوامل كثيرة تعمل في تكوين حياة الفرد الخاصة كالوراثة وطوارئ الحوادث ونوع التربية وبيّنا حينذاك ان الفرد وان لم يكن لهُ وجود خاص وانما هو ذرة تصرّفها حياة العالم وهي تسير مكرهة في الطريق الذي يرسم لها . فان في هذه العوالم الخاصة ما يكفي للتفرقة بين الافراد في الوجهات التي توجّههم اليها الحياة . هذه العوامل نفسها واخصها الوراثة والطوارئ، واحداث الصدف ونوع التربية هي التي تجعل اصورة الحياة الاجتماعية في نفس الفرد لوناً خاصاً وتجعلهُ يتصور المسؤولية على نحو خاص . صحيح ان مجموع الوحدات الانسانية هو الذي يرسم الطريق الذي تتبعهُ هذه العوامل ولكن هذه العوامل قد تبلغ من نفوس بعض الافراد احياناً فتطمس على الطريق وتأخذ صاحبها الى وجهة اخرى تجعلهُ اما مجرماً اثيماً او شاعراً كبيراً او نبياً كريماً . وفي الاحايين الاخرى والغالبة لا تصل الى هذا ولكنها تجعل دائماً شيئاً من التضارب يقوم بين الوحدات الانسانية او البعض منها وبين الفرد . وهذا التضارب هو ما يدفع بهِ الى ما يسميهِ الناس الخطيئة . والشخص الذي تنطبق نفسهُ تمام الانطباق على الوسط الذي يعيش فيهِ هو الشخص الذي اتبعت وراثتهُ مجرى تطور الانسانية فلم تزد اطاعتهُ على ما يريد الاجتماع ان يجبرهُ اياهُ ولم يشعر بثقل حمل الواجبات التي يضعها الاجتماع على عاتقهِ

وهذا النوع الاخير من الافراد نادر جداً ان لم نقل معدوم كلياً . وكأن ذلك الخيال القديم الباقي خيال آدم وهو خارج على الوسط الذي عاش فيهِ مرتكب تلك الخطيئة

التي اخرجهُ وابناءهُ من الجنة هو هو صورة كل واحد من بني آدم . وانما يجب ان نلاحظ ايضاً ان العوامل التي تؤثر في نفس الفرد لا تصل الى ملاشاة صورة الجمعية من نفسهِ الاَّ في احيان نادرة . فالمجرمون بالخلق والمجانين العظماء قلائل في العالم جدًّا . واما ما عدا هؤلاء من الافراد الذين يكوّنون سواد الانسانية فهم مرآة لصورة الجمعية التي يعيشون فيها . وعلى مقدار دنوهم او عدم دنوهم في تلقي هذه الصورة يكون تكوُّن فكرة المسؤولية في نفوسهم . وهؤلاء الاشخاص الذين لم يصلوا بالتربية ليفكروا لانفسهم ولم تخجهم عوامل خاصة كالوراثة والصدف عن طريق الحياة المعتاد تنطبع في نفسهم صورة الجمعية التي يعيشون فيها انطباعاً يكاد يكون تامًّا ولذلك تقوم المسؤولية في نفوسهم وحدةً متماسكةً مرتبطةً اتم الارتباط بالصورة المذكورة . من هذا ما نلحظ من ان بعض القبائل المتوحشة يبلغ الندم على الخطيئة من نفوس بعض افرادها حتى لتراهُ ناتجاً منتجاً مهما قلَّت قيمة الخطيئة التي ارتكبها . وكأن هذا الفرد يشعر بانهُ جزء متضامن مع الكل الذي هو الجمعية . ومن امثلة ذلك ان بعض قبائل استراليا تحرم على الشبان منها اكل نوع خاص من انواع الصيد النادرة التي يحتفظ بها لتقدَّم للرجال والكهول تكريمًا واعزازاً . وبلغ من شأن ذلك التحريم ان من يتعداهُ يجازى بالقتل . ولقد شوهد من بين الشبان الذين انتهكوا حرمة ذلك القانون ولو تحت اثر الجوع من يقدمون انفسهم معترفين بذنبهم مظهرين اشد الندم عليهِ . وهذا الاعتبار للفرد كوحدة اجتماعية لا وجود لها بذاتها هو الذي سمح لقبائل العرب ولقبائل استراليا ان يجيزوا جريمة واحد من قبيلة اخرى تقع على قبيلتهم مستوجبة مسؤولية كل فرد من افراد تلك القبيلة الاخرى حتى لتهدأ ثائرة الانتقام في نفس من وقعت عليهِ الجريمة متى قتل اي فرد من افراد قبيلة واتره . وقد استمرت هذه الفكرة فكرة تضامن الفرد في المسؤولية مع الجماعة التي هو منها تتسلسل على العصور الى ما بعد المسيحية . وانا لنقرأ في هرودوتس الى التاريخ قصص الملك كريسس (قارون) الذي ذهب يشكو الى الاله ابولون ما لاقى من هزيمة ودمار في موقعة سرديس بعد ان قاضى على هذا الاله من تحف وقرابين فيجيبهُ رسول ابولون بما يأتي : محال ان تنجو حتى الآلهة مما قدر لها . ويجب ان يذكر كريسس انهُ انما لاقى جزاء خطيئة جدهِ الخامس الذي كان فارسًا في حرس كاندول احد ابناء الهرقلة ثم ترك نفسهُ تتسلط عليها امرأة تدفعهُ آخر الامر لقتل سيدهِ الملك واغتصاب تاج لم يكن لهُ . ولقد جاهد ابولون رجاء ارجاء مصيبة سرديس حتى لقع على رأس اخلاف كريسس ولا تصيب اباهم فلم يُقبَل رجاؤهُ ولا استطاع اخلاف القدر

وكل ما وصل اليه ان امتد خراب سردس لستين ثلاث مقبلة · وانما نال ذلك كره احكام المقادير » · وهنالك يعترف كريسس ان الذنب ذنبهُ الموروث لا ذنب الاله

ومن ذلك كله يرى ان الفرد العادي يعتبر نفسهُ ذرة مماثلة لكل ذرات الجمعية الاخرى ويشعر في اعماق نفسهِ انهُ متضامن تضامناً تاماً مع ماضيك الذرات حتى ليسأل هو عن التكفير عما يقع منها · وليس شيء ابلغ من ذلك في الدلالة على ان الجمعية تطبع الافراد بطابعها وتعدم شخصيتهم لتقيم في قرارة قلوبهم شخصيتها وتجعلهم بذلك يسيرون على السنن التي تسنها هي لهم من غير ان يكون لهم في تلك السنن اي اختيار

ولكن الوف القرون التي مرت بالانسانية لم تترك فرداً من افرادها من غير ان تخلق لهُ ظروفاً خاصة تكوّن في نفسهِ شيئاً من الفردية الواقفة ظاهراً في وجه الجمعية البارزة ضد طابعها · فتعاقب الوراثات المختلفة وتناقض المدنيات المتناقضة وتناقض المذاهب والملل وقيام الحروب الشعواء من اجل مناصرة هذه المذاهب وتلك المدنيات كل ذلك وما سواهُ جعل الصورة الاجتماعية يداخلها في بعض المواضع شيء من الابهام يسمح لقوى خاصة في نفس الفرد ان تقوم وتقوى وتصل من ذلك الى مناهضة الجمعية وقوانينها السائدة مناهضة يختلف مقدارها باختلاف الملكات والقوى وباختلاف الظروف التي قامت فيها تلك الملكات ونكونت وقويت · ففي نفوس هؤلاء الافراد تقوم فكرة المسؤولية على اساس يتفق مع طابع الجمعية الى الحد الذي تبدأ بعدهُ تلك القوى والظروف الفردية تناوئ الوحدات الاجتماعية السائدة · اما بعد هذا الحد فتكون فكرة المسؤولية مضطربة لا يجدها الا الجزاء القانوني لمقابل لما يبعثها من الاعمال والحركات الفردية

وكلما ازدادت الظروف الخاصة وسمحت للفرد ان يقوم بكله في وجه الجمعية تداعت في النفس فكرة المسؤولية وحفت حولها اعتبارات خاصة ترجئ بحثها الى ان نصل للمقارنة بين فكرتي المسؤولية والجدارة

هذه القواعد التي قدمت لتطبق على الاشخاص الذين يتبعون تيارهم ويسيرون مع عواطفهم سواء كانت هذه الفكرة وتلك العواطف اجتماعية او ضد الاجتماع · واما الاشخاص الذين يصلون من تربيتهم الى حد التفكير الفردي الخاص فاولئك يحللون مسؤولياتهم في كل صغيرة وكبيرة مما في الحياة · وذلك لا يمنع احساس بعضهم من ان يكون ميتاً امام الذنب الذي يرتكبهُ

بل ان اولئك الذين يصلون من تفكيرهم الفردي الى حد تحليل المسؤوليات التي تكونت

في نفوسهم من نعومة اظفارهم يكونون في الغالب اقل احساساً بعظم الخطيئة كما يكونون اقل دهشة او اعجاباً او تقديساً امام الجيل العظيم . وسبب ذلك هو ما قدمنا من ان التحليل والتسبيب يستدعيان الاحتمالات والافتراضات التي هي اساس الشكوك . والشكوك اذا بدأت عملها في تحليل المسؤولية اضطرت حتماً ان تتناول الوحدات الايمانية التي هي اساس المسؤولية . وهذه الوحدات الايمانية هي الغذاء الروحي الذي يدخل القلب والنفس ويعطيها من القوة ما يعطيه الغذاء المادي للجسم . فاذا دخلها الشك ابتدأت النفس تتزعج ويعقب ذلك حتماً ازدراء الحياة والتقزز منها . ومتى داخل النفس التقزز صغر امامها كل شيء واحتقرت الوجود وما فيه . فتضاءل الاعجاب وتضاءل الاسف وخمد القلب وقلت نزعاته الكريمة . ولولا ان فطرة استبقاء الحياة قوية جداً تغلب كل شيء لوصل المفكر الى نتائج أنفس من الرضوخ لاحتمال الحياة . ولكن هذه الفطرة القوية الفعالة تعيد كرتها عليه وتغلب فيه دواعي استنكار الحياة بانواع شتى من الحيل . ابسطها ان يسأل المرء نفسه وما نتيجة استنكار الحياة . هنالك يعاوده الامل ويرى وجوب الاخذ في الحياة العملية بواجبات قريبة من المتعارف تكون نظامه وغايته . ولكنه يبقى حاساً بشيء من الوحدة يدفعه ليجاهد في سبيل ادخال وحداته الايمانية الخاصة في كتاب الاجتماع فيجد في الناس اخواناً واصدقاء . وهذا الجهاد هو نوع خاص من انواع المسؤولية نبينه فيما سيأتي ونوضح سببه ونتيجته

ولكن هذه الصور التي جئنا بها في طريق تحليلنا لفكرة المسؤولية كالشذوذ الفردي والمجانين العظماء وخمود حاسية المفكر بالمسؤولية اليست في ظاهرها تقف في وجه الفكرة الاولى فكرة انطباع صورة الجمعية في نفس الفرد وتكوينها بذاك ضميره وادخالها مبادئها عليه وتركها اياه يقدر المسؤولية بمقدار هذه المبادىء . فكيف يكون ذلك مع ما عليه الجمعية من قوة تكاد تلاشي الفرد كل التلاشي ؟ ان اول القوانين الطبيعية التي تعمل في كل المخلوقات الحية قانون بقاء الاصلح وفناء الشاذ . وهذا القانون لا يحتمل اي استثناء . فهو يستخدم كل الوسائل ليكون نافذاً على كل المخلوقات . فهل اضمحل في الجمعية الانسانية . وهل بقي القوانين والانظمة تحارب الطبيعة ونواميسها وان صح ذلك فكيف يكون النظام الاجتماعي طبيعياً وهو بنفسه يحارب الطبيعة

هذه مسائل واعتراضات يحار الذهن امامها اذا هو لم يستعن على حلها بمعلومات خارجة عن المنطق المجرد . واهم هذه المعلومات معرفة قانون التطور وكيفية عمله وتفاعله مع قانون

بقاء الاصلح . فان الجمعية الانسانية لم تكن من الف الف سنة ما كانتهُ من الف قرن ولا ما هي عليهِ اليوم بل هي تتطوَّر وتدخل فيها عناصر وتحل عناصر اخرى . وتنتقل بذلك من جيل الى جيل محمَّلة بماضيها مستعدة لانقلابات جديدة حاملة في جوفها بذور ثورات وانظمة واختراعات لاحد لها ولا نهاية . لكن حصول هذه الانقلابات ليس معناهُ فناء ما سبقها وقيام نظام جديد لا علاقةَ لهُ بالماضي . فان الطفرة مستحيلة استحالة تامة . ولكن الانقلابات معناها انهيار بناء متداع فخر السوس في اصلهِ وظهور ابنية جديدة كانت اسسها موجودةً بشعر الناس بها ولكنها لم تكن قد ارتفعت بعدُ واعلنت نفسها . وحتى الابنية القديمة التي تنهار لا تفنى فناء مطلقاً . ومهما كان من شدة حنق الانسانية حين قامت فدكتها فان ذلك لا يمنع هذه الانسانية نفسها حين تراجعها سكينتها من ان تبني لذكرى ذلك الماضي اضرحةً جميلة من الرخام النقي وان تقيم حولها الازهار وتخلدها باشعار رائعة . ذلك لان في الماضي مهما فخر اصولهُ السوس ذكري ابائنا واجدادنا واعزة علينا . فيهِ ذكرى عظماء الانسانية الخالدين . فيهِ ذكرى فرعون وموسى والمسيح ومحمد وشكسبير ونابليون . والماضي هو فرق ذلك قمةٌ من عمر الانسانية ذات الرخلد في حاضرها ومستقبلها . ومن ذلك يظهران التطور ليس استحالتهُ تامة ولكنهُ فروع جديدة تفرع على الجذع الاصيل مكان فروع اخرى ذبلت وسقطت وتركت في ذلك الجذع القديم الخالد الذي يعز كل جيل من اجيالهِ آثاراً متبدلة لا يمكن ان تزول

وحدوث هذا التطور راجع الى ما يلقيهِ جماعة الذين ينظرون الى الحوادث الاجتماعية نظراً سطحيًّا للتضارب بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة . فهذه الحركة العظيمة التي يسعى اليها كل واحد من بني آدم للوصول الى مركز عالٍ او ثروة ضخمة او متاع بالحياة كبير مضحياً في سبيل ذلك ببعض الاعتبارات الخلقية واصلاً احياناً في هذه التضحية الى ارتكاب ما تحرمهُ سنن الاجتماع الادبية بل قواعدهُ القانونية — هي السلَّم التي تتدرج عليها الجمعية من حالتها البربرية الاولى الى مدنيات مختلفة وصلت الى ما نراهُ اليوم من عظمة السلام وعظمة الحرب . وهي السلَّم التي ينتظر ان تصل عليها الى ارقى مما نرى بكثير . لهذا فهما جاهدت الجمعية بقوانينها ووحداتها الايمانية واكراهها المادي والمعنوي تريد ان تخضع الافراد لسلطانها فسيبقى دائماً في قرارة النفس الفردية شيءٌ كأنهُ يثور على هاتهِ القوانين والقواعد والوحدات وعلى الرغم من هذا الاكراه . لان هذا الشيء الكمين في النفس والاحساس الداخلي الذي يدفع الفرد مهما خضع لاوامر الجمعية التي هو منها ليثور عليها او ليفعل ما

قد يضرها والموجود في كل الافراد بكميات مختلفة هو اساس تلك الظاهرة الاجتماعية التي يقوم عليها التطوُّر الانساني · هو نزعة الجنس الى الكمال والتطلع الكمين في نفس الانسانية مأخوذة كوحدة قائمة بذاتها وسط وحدات الكون وعوالمه الاخرى يريد بها ان تصل لتمثل مكان القلب والعقل والروح من نفس الوجود كلهِ · على ان هذا الاحساس الدقيق العظيم تجسد جذوتهُ في معظم النفوس وتحول في طريق لا يمكن ان يصل الى الغاية المرجوة في نفوس اخرى في حين هو يوتق كل التوفيق ويصل الى احسن النتائج في نفوس ثالثة · والخمود والتقهقر والنوع انما تكون بمقدار استعداد تيارات الجسم لتلقي والاصدار وللتفاعل مع الحوادث سلباً وايجاباً

محمد حسين هيكل المحامي

دكتور في الحقوق

الحياة بعد الموت

ومناجاة الارواح (تابع ما قبلهُ)

قلنا في مقتطف مايو ان السر اوليفر لدج قصد وسيطاً اسمهُ يترس لكي يوسطهُ في الكلام مع روح ابنهِ وان يترس هذا لم يكن يعرف مَن هو على قولهِ وكان ذلك في ٢٩ اكتوبر سنة ١٩١٥ مع ان لادي لدج استخدمت هذا الوسيط نفسهُ في ٢٧ سبتمبر اي قبل ذلك باكثر من شهر · وهاك خلاصة ما ورد في كتاب السر اوليفر لدج عن هذه الجلسة

دعت مسز كندي لادي لدج ان تجرب وسيطاً يختلف عن الوسطاء الذين استخدمتهم قبلاً واتفقت مع رجل اسمهُ يترس على ان يأتي بيتها ويغيب فيهِ لاجل صديقة لها لم تعيِّنها لهُ · فاتى في الساعة الثالثة بعد الظهر من يوم الاثنين في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١٥ وذهبتْ لادي لدج وحدها الى بيت مسز كندي فبيَّن ذلك وانتظرت هيئةً ولم تعرِّفهُ مسز كندي بها · ولهُ مرشد اسمهُ موستون كما تقدَّم ولم يكن هناك احد غيرهُ الاَّ مسز كندي ولادي لدج فاخذت مسز كندي قلماً وقرطاساً وجعلت تكتب ما يقولهُ في غيبوبتهِ · ويعتقد السر اوليفر لدج ان هذه الجلسة مهمة جدًّا لان الوسيط لم يكن يعرف غرض لادي لدج ولا اسمها · فان كان كما قال وكانت مسز كندي لم تتواطأ معهُ على غشها فالامر في حد الغرابة الاَّ اذا غشاها عن غير قصد